التعددية الدينية
المدخل إلى الحوار بين الحضارات

علاء هاشم الموسويّ

السنة الثالثة ـ العدد العاشر

إنَّ التعدُّدية الدينية تعني تعايش المعتقدات المتنوِّعة والمختلفة مع بقاء مميِّزات وخصائص كلٍّ منها، وبتعبيرٍ آخر تعتبر التعدُّدية الدينية نظريةً خاصَّةً عن علاقة الأديان كتقاليد ثقافيةٍ وتنوُّعها في ادعاءاتها المختلفة للحقيقة، وقد أدَّت إلى شيوع مفهوم التعدُّدية الدينية جملةٌ من الأسباب، منها اختلاف الأديان السائدة في العالم التي تصوِّر الإله وجوداً وعدماً، وحدةً وتعدُّداً، وفي وظيفة الدين واعتقاد كلِّ دينٍ بنوعٍ من الأفضلية أو الإختيار الإلهيِّ لمعتنقيه، ولا يكاد يخلو دينٌ من هذا الأمر، فالتعصُّب والتطرُّف متأتٍّ من اعتقاد الفرد أو الجماعة بأنها المالكة الوحيدة للحقيقة، وبالتالي إلغاء ما لدى الآخرين من حقائق، فيصبح التطرُّف قطيعةً مع الآخر، وبالتالي قطع الجسور معه.

إنَّ التغاير والإختلاف قائمان في صميم العلاقات البشرية، والتوحُّد في وجوهه كافَّةً لا ينفي التغاير، كما إنَّ هذا لا ينفي التوحُّد، إنهما يتداخلان ويتوازيان ويؤثِّر أحدهما في الآخر، بل قد يرفده بعناصر القوَّة، لأنَّ البشر خلقوا بخصائص غنيةٍ ومختلفة، وإنَّ الخطأ اتخاذ هذا الإختلاف سبباً للصراع وللخصام، فمثل هذا الخطأ سيؤدِّي إلى الإخلال بالأمن والسلام، ويلحق ضرراً كبيراً بالإنسانية، وينسف جميع جسور التفاهم، بينما الصواب هو عدُّ كلِّ هذه الخلافات كزهورٍ فوّاحةٍ تملك كلُّ زهرةٍ منها جمالاً وعطراً خاصاً بها لتشكِّل حديقةً إنسانيةً مباركة.

في المنظور القرآنيِّ يبدو مستقطباً عبر مجراه الطويل بكلمتي الإيمان والكفر، أو الحقِّ والباطل، ترفده جداول وأنهارٌ متشابكةٌ تجيء من هذا الصوب أو ذاك، ومن خلال هذا التغاير تتحرَّك مياه التأريخ فلا تركد ولا تأسن، وتحفظ بهذا قدرتها على التدفُّق والنقاء. وإنَّ الإرادة الحرَّة والإختيار المفتوح اللذين منحا الإنسان فرداً وجماعةً، حقَّ الإنتماء إلى هذا المذهب أو ذاك، يقودان

بالضرورة إلى عدم توحُّد البشرية وتحوُّلها إلى معسكرٍ واحد.

إنَّ قيمة الحياة الدنيا وصيرورتها المبدعة تكمن في هذا التغاير، وإنَّ حكمة الله سبحانه شاءت حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد أن تشهد انقساماً وتغايراً وتنوُّعاً وصراعاً.

وقد جاء تأريخنا الإسلاميُّ لكي يمنح مساحةً واسعةً للتغاير، وقبول الآخر، والتحاور معه، والوقائع في هذا السياق كثيرةٌ جداً، فمنذ البدايات المبكِّرة قدَّم عصر الرسالة إزاء أهل الذمِّة يهوداً ونصارى، موقفاً منفتحاً رسمت من خلاله تقاليد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ووضعت أصولها ونظَّمت صيغها، وعندما مضت حركة التأريخ صوب العصور التالية مضت معها هذه التقاليد والأصول والصيغ تصنع مجرى العلاقات الإجتماعية، وما حدث بين الحين والحين من خروجٍ عليها لم يتجاوز أن يكون شذوذاً على القاعدة ازدادت به تأكيداً بمرور الأيّام.

لقد ظهرت جماعة المسلمين، جماعة التعارف والقسط والرحمة في عالم القرن السابع الميلاديّ، وكان اتخاذها للهجرة النبوية ﴿٦٢٢م﴾ تأريخاً لها علامةً على ظهور التنظيم السياسيّ، فتحاور وتجاور في تجربتها التأريخية الإجماع الإنسانيَّ مع الدولة، وقد كان أوَّل الأنظمة ظهوراً في التعامل مع غير المسلمين هو نظام أهل الذمِّة الذي شمل المسيحيين واليهود في البداية استناداً للقرآن، ولتجربة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والمسلمين في مجتمع الجزيرة العربية، وقد تجاوز نظام أهل الذمِّة التعارف والإعتراف إلى ما يقرب من الأخوَّة بحسب ما نصَّ عليه القرآن، للإشتراك في أصل الإيمان بالإله الواحد والعقائد الأساسية، وإن لم يادلهم ﴿أهل الكتاب﴾ ذلك، وقد اعتبر الفقهاء في كتبهم أهل الذمَّة ﴿من أهل دار الإسلام﴾، وضمنت الدولة لهم الحرية الدينية المتضمِّنة حرية العبادة والتعليم الدينيّ، والتنظيم الدينيّ، وحرية الحركة الإجتماعية والإقتصادية.

والواقع أنَّ نظام أهل الذمَّة في أكثر وجوهه اجتهاديٌّ وليس قرآنياً، إلا

من حيث أصله، ولذلك فقد تأثَّر بالظروف التأريخية، وبعلاقة الدولة الخارجية، إذ من المعروف أن التوتُّر مع البيزنطيين المسيحيين استمرَّ على الحدود قروناً متطاولةً، وكان ذلك التوتُّر يؤثِّر على التعامل مع المسيحيين بداخل دار الإسلام، فينال بعضهم حيفٌ أو توجُّسٌ، لكنَّ شيئاً من ذلك التحوُّل إلى سياسةٍ مقرَّرةٍ في أيَّة حقبةٍ من الحقب، والدليل على ذلك أنَّ هذا الحيف العارض أيام العباسيين والحروب الصليبية، وما شمل اليهود، رغم سوء علاقة النبيِّ بهم في المدينة في سنيِّ الإسلام الأولى، لأنهم كانوا أقلياتٍ منتشرةً في دار الإسلام، وما كانت لهم دولةٌ تتحدّى الدولة الإسلامية أو تقع على حدودها، ولذلك ما نالهم شيءٌ من الهضم الذي نال بعض الجماعات المسيحية في أوقاتٍ محدودة، وما يقال عن عيشهم وحرياتهم ومشاركتهم يقال عن أديانهم، إذ ما أرغم أحدٌ منهم على اعتناق الإسلام بقوَّة الدولة أو الضغط الإجتماعيّ، وقد بقي المسيحيون أكثريةً في الشام ومصر إلى عصر الحروب الصليبية، وإلى ما بعد ذلك في الأندلس ونواحٍ أخرى، وإذا كان نظام أهل الذمَّة اجتهادياً، وشمل في الأصل اليهود والنصارى، فقد امتدَّ فيما بعد ليشمل الزرادشتيين والبوذيين والهندوس.

والتقسيم إلى مسلمين وذميين تقسيمٌ اسلاميٌّ داخليٌّ من أجل التنظيم، وليس من أجل التمييز إلا فيما ندر، أما العلاقات الخارجية بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية فقد اشترع لها بالممارسة، ثمَّ بالنظرية، تنظيم دار الإسلام ودار الكفر أو الحرب، وهذا التنظيم اجتهاديٌّ أيضاً، ولا يتضمَّن تمييزاً بل هو تقريرٌ لأمرٍ واقعٍ، فالحرب التي يصحُّ تسميتها جهاداً هي الحرب الدفاعية، إذ علة الجهاد أو الحرب المشروعة العدوان أو خوفه في رأي أكثرية الفقهاء المسلمين.

ثمَّ إنه رغم التسمية بدار الحرب، فأكثر الدول خارج دار الإسلام تشملها تنظيماتٌ أخرى مثل دار الموادعة، ودار العهد، ودار الإستئمان، وهي جميعاً تعبيرٌ عن أنواع العلاقات القائمة بين تلك الدول مع الخلافة الإسلامية، وفي كلِّ الأحوال ما توقَّفت التعاملات السلمية والتجارية بين الأفراد والفئات من

تلك الدور، وبين أهل دار الإسلام، حتى في حالات الحرب، وكان هؤلاء من غير المسلَّحين يسمون فور دخولهم دار الإسلام بالمستأمنين، ويستطيعون العمل والتصرُّف بحرية، وفي حالات الحرب كانت لأسرى العدوِّ وجرحاه حقوقهم المصونة التي نصَّت عليها كتب السير والجهاد، ومن ضمنها عدم جواز قتلهم أو إساءة معاملتهم، ولو فعل العدوُّ ذلك بأسرى المسلمين [1]، وهذه الممارسات اعتبرها بعض العلماء المحدثين معالم مهمَّةً في تطوُّر القانون الدوليِّ في العصور الوسطى.

إنَّ الفرق بين الإسلام والديانتين الإبراهيميتين الأخريين لا يتعلق بطبيعة العقيدة أو القيم أو الرؤية بل في بعض الجزيئات التي اقتضتها تحولات الزمن واعتبارات التاريخ، فالإسلام هو دين اكتمال المسار الإبراهيمي وهذا كان لابد أن يتسم بالمرونة والانفتاح واليسر ليستوعب اختلاف السياقات المكانية والزمانية، فهو لهذا السبب دين يقوم على احترام الاختلاف والتعددية وقبول حرية الرأي والعقيدة [2].

إنَّ روح الحوار قائمةٌ على أساس الحقِّ الذي نطلبه جميعاً، ولو رجعنا إلى القرآن الكريم والتأريخ الإسلاميِّ لوجدنا أنَّ الإتجاه العامَّ كان إلى جانب الحرية الفكرية التي تحترم آراء الآخرين وتناقشها على أساس الموضوعية والوصول إلى الحقّ، وقد نقل لنا التأريخ حوارات الإمام الرضا عليه السلام مع النصارى والمجوس وغيرهم من أهل الملل والنحل، وكذلك الإمام الصادق عليه السلام في حواره مع الزنادقة الذين كانوا يناقشونه في وجود الله وفي حكمته في عصره، وغير ذلك، بأسلوبٍ يغلب عليه طابع التحدِّي، فيقابلهم بالحجَّة والبرهان والكلمة الطيِّبة، حيث كان الحوار يمثِّل سنداً وتبعيةً تأريخيةً على قدرة الإسلام

﴿١﴾ دفاعاً عن التعددية، برهان غليون، دار الفكر العربي ـ بيروت، ١٩٩٨، ص٣٨.
﴿٢﴾ ينظر عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ط١٥، دار النفائس ـ بيروت ١٩٩٧، ص٣٨.

وسعة أفقه في مجال الدعوة والحوار﴿١﴾.

ما الذي أراد رسول الله ﷺ أن يقوله وينفِّذه إزاء غير المسلمين من أهل الكتاب؟.

إنَّ بمقدور القارئ أن يرجع إلى كتب السيرة للعثور على الجواب الشامل بجزئياته وتفاصيله، ولكننا نودُّ أن نشير مجرَّد إشارةٍ إلى العهد الذي كتبه الرسول في أعقاب غزوة تبوك عام ﴿٩هـ﴾ لنصارى نجران، ذلك العهد الذي يمثِّل قمَّةً من قمم العدل والسماحة والحرية، والذي لم يفرض عليهم فيه سوى جزيةٍ عينيةٍ متواضعةٍ، وقد جاء فيه: ﴿ولنجران وحاشيتهم جوار الله.. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. ولا يؤاخَذ أحدٌ منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمَّة النبيِّ أبداً، حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم﴾ ﴿٢﴾.

كما نودُّ أن نشير إلى العهود التي كتبها لعددٍ من التجمُّعات اليهودية في شمال الجزيرة، بعد غزوة خيبر ﴿٧هـ﴾ والسنين التي تلتها؛ إذ بعث إلى بني جنبةٍ بمقنة القريبة من أيلة على خليج العقبة: ﴿أما بعد، فقد نزل على رسولكم راجعين إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمَّة الله وذمَّة رسوله، وإنَّ رسول الله غافرٌ لكم سيئاتكم وكلَّ ذنوبكم، ولا ظلم عليكم ولا عدوى، وإنَّ رسول الله جاركم مما منع منه نفسه.. وإنَّ عليكم ريع ما أخرجت نخلكم، وصادت مراكبكم، واغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد من كلِّ جزيةٍ أو سخرةٍ، فإن سمعتم وأطعتم فإنَّ على رسول الله ﷺ أن يكرم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم وعليهم الجزية ولا عداء﴾.

﴿١﴾ الشيخ مهدي العطار، الإختلاف وأثره في التربية، تحقيق: راضي الحسيني، الطبعة الأولى، دار الزهراء ـ قم المقدسة، ٢٠٠٦م، ص١٤٢.

﴿٢﴾ أحمد بن واضح اليعقوبي ﴿ت٢٨٢ هـ﴾، تأريخ اليعقوبي، تحقيق: محمد صلاح بحر العلوم، المكتبة الحيدرية ـ النجف ١٩٦٤م، ٢/٧١ ـ ٧٢.

كما كتب لبني عريضٍ كتاباً آخر يحدِّد فيه ما عليهم أن يدفعوا للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم إياهم «١»، وبذلك تمكَّن الرسول صلى الله عليه وآله من تحويل هذه التجمُّعات اليهودية إلى جماعاتٍ من المواطنين في الدولة الإسلامية، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقديةٍ أو عينيةٍ، ويحتمون بقوَّته وسلطانها، ويتمتَّعون بعدلها وسماحتها، وظلَّ اليهود والنصارى كمواطنين يمارسون حقوقهم في إطار الدولة الإسلامية، لا يمسُّهم أحدٌ بسوء.

وهناك الكثير من الروايات والنصوص التأريخية التي تدلُّ على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح، حتى إنه أوصى عامله معاذ بن جبل: «بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم»، وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين؛ إذ لم يكلَّفوا إلا بدفع الجزية، وبقوا متمسِّكين بدين آبائهم.

فالتنوُّع مطلوبٌ حسب النصِّ القرآنيِّ الكريم، وهو من آيات الخلق السامية، فليس من هدف الإسلام حمل الناس على ملَّةٍ واحدة، أو عقيدةٍ مشتركةٍ، بل إنَّ اختلافهم مطلوبٌ ومقصودٌ، ويبيِّن القرآن الكريم الحكمة من الإختلاف بأنها التعارف والتعاون على البرِّ والتقوى والتسابق إلى الخير، ولهذا السبب أعلن الإسلام حرية العقيدة ونبذ الإكراه في الدين ووضع ضوابط دقيقةً لتعميق خطِّ التفاعل والتعارف بين بني البشر الذين يتفقون في أصولهم وعمود نسبهم «كلكم لآدم وآدم من تراب»، كما يتفقون في قدراتهم المعرفية والعقلية والروحية، ولا يتمايزون إلا بسلوكهم الأخلاقيّ، وميزاتهم الروحية المكتسبة المتاحة لجميع الناس.

لقد ساهم غير المسلمين في صنع الحضارة الإسلامية وإغنائها، دونما أيَّة

«١» أحمد بن يحيى البلاذري «ت٢٧٩هـ» فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٥٧م، ١/٧٦ـ ٧٨.

عقدٍ أو حساسياتٍ من هذا الجانب أو ذاك، كما فتح الطريق أمامهم للوصول إلى أعلى المناصب، بدءاً من الكتابة في الدواوين، وانتهاءً بمركز الوزارة الخطير نفسه، وأتيح لأبناء الأديان والمذاهب الأخرى أن يتحرَّكوا في ساحات النشاط الإقتصاديِّ والماليِّ بحريةٍ تكاد تكون مطلقةً، فنموا ثرواتهم، وارتفعوا بمستوياتهم الإجتماعية بما يوازي قدراتهم على العمل والنشاط، وملأوا بهذا وذاك مساحةً واسعةً في ميدان النشاط الإقتصاديِّ والماليّ، جنباً إلى جنبٍ مع مواطنيهم المسلمين.

إنَّ بعض الأنشطة المالية والإقتصادية كادت تصبح من اختصاص أهل الكتاب، تماماً كما كانت الترجمة في المجال الثقافيِّ من نصيبهم، وكما كانت بعض الوظائف الإدارية والكتابية في المجال الإداريِّ من نصيبهم كذلك.

إنه مجتمع تكافؤ الفرص والحرية العقيدية والإنفتاح.

لقد استجاب المسلمون للتحدِّي الإجتماعيّ، وكانوا في معظم الأحيان عند حسن ظنِّ رسولهم ﷺ بهم، وهو يوصيهم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أن يكونوا رفقاء بأهل الذمَّة، وهناك تيارٌ من المعطيات التأريخية نُفِّذ في ساحة المجتمع الإسلاميِّ عبر القرون الطوال، ونُفِّذ على مختلف الجبهات، ووفق سائر الإتجاهات الحضارية والإدارية والإقتصادية والإجتماعية عموماً.

إنَّ الإسلام يعتمد معيار الدولة المدنية غير الدينية التي تقوم العلاقة بين مواطنيها على أساس المصلحة المشتركة والتعاون على دفع الظلم وتحقيق العدل، فأحكام أهل الذمَّة التي نجدها في كتب الفقه القديم هي من مفهوم وتأويلات الفقهاء بحسب أوضاعٍ ظرفيةٍ، وليست من صلب الدين نفسه، كما انَّ ما عرفته بلدان الإسلام في بعض الفترات الحالكة من اضطهادٍ للأقليات الدينية اليهودية والمسيحية، لم يكن سوى شذوذٍ عن القاعدة الأصليةِ، وهو على العموم يفسَّر بطغيان الحكام واستبدادهم الذي طال مختلف السكان بمن فيهم المسلمون.

إنَّ الحوار الإسلاميَّ مع الديانات الأخرى اليوم يختلف كلياً من حيث

الأهداف والآليات عن تجربة الحوار السابقة في العصور الوسطى، لاختلاف السياقات وتغيير أنماط التديُّن وأشكال حضور الدين في المجتمعات المعاصرة بالمقارنة مع المجتمعات الإسلامية والمسيحية الوسيطة التي كانت تُنظَّم بحسب مقاييس الدين، والواقع انَّ الإسلام ـ كما المسلمين ـ تعرَّض لتأويلٍ ابتعد به عن المضمون الحقيقيّ، ولضغوط عنيفة وعاصفة طوال القرن العشرين، وكما تغيَّر الإطاران الإجتماعيُّ والسياسيّ، تغيَّر أيضاً الإطار الثقافيُّ والثقافيُّ الدينيّ، وقد ظهرت إحيائيةٌ إسلاميةٌ قويةٌ ضربت المؤسَّسات التقليدية، وأضعفت تحرُّكات الإصلاح بحجَّة مكافحة التغريب، وسادت على مدى نصف قرنٍ ثقافةٌ دينيةٌ مضادَّةٌ للكثير من تطوُّرات العصر أنتجت رؤيةً أخرى للعالم، ووسط هذا المخاض الكبير لم يمكن للإسلام عبر علماءه التقليديين أو الجدد الإستيعاب والإستجابة للتفاعل بالقدر الملائم، ولذلك فقد بدا المسلمون في قضايا التسامح والإنفتاح ومعاصرة العالم إما جامدين وعاجزين إذا كانوا تقليديين، وإما معادين وعدميين إذا كانوا إحيائيين أو أصوليين، ففي الوقت الذي كانت فيه النزعة الإنسانوية تنجز بعد الحرب الثانية ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالميَّ لحقوق الإنسان، كان الإحيائيون الإسلاميون يقبلون على مجادلتها باعتبار قولها بالحقِّ الطبيعيّ، بينما هم يقولون بالتكليف الإلهيّ! وفي الوقت الذي كانت فيه الكنائس المسيحية الكبرى تنجز سلاماً فيما بينها ومع عالم الأديان والمذاهب والأزمنة الجديدة بالحديث عن إمكان نجاة غير المسيحيين في الآخرة، كان الإسلاميون ينهمكون في خصوماتٍ لا تنتهي حول دقائق العقيدة ومقتضياتها؛ الأمر الذي يقودنا للقول بأنَّ المسلمين كانوا منفتحين في العصور الوسطى وهم اليوم يتشدَّدون، بينما المسيحيون المتشدِّدون في العصور الوسطى هم اليوم متسامحون، ومع ذلك فإنه يجب الحفاظ على لبِّ الرؤية الإسلامية المنفتحة والمتسامحة من أجل الجدال بالتي هي أحسن مع الحضارتين اليهودية والمسيحية، ويمكن أن نقسِّم الرهانات المستقبلية لهذا الحوار إلى ثلاثة ملفَّاتٍ حيويةٍ: ملفٌّ

ديني، وملفٍ حضاريّ، وملفٍ استراتيجيّ.

أما الملفُ الديني فيتعلَّق بضرورة التغلُّب على أنماط التشويه وسوء الفهم الموروثة عن حقبة الصراعات الدينية السابقة والحروب الصليبية، ولا يكون إلا بتشجيع الدراسات المقارنة بين الديانات الثلاث لبيان الأوجه المشتركة الكبيرة بينها، وللتدليل على أنَّ الفروق الطفيفة بينها لا تشكِّل عائقاً للتعايش والتفاعل بينها، ففي الساحة الغربية يجب مراجعة الدراسات الإستشراقية المتأثِّرة بمناخ الحروب الصليبية لتنقيتها مما خالطها من دسٍّ وتشويهٍ لصورة الإسلام ونبيّه الكريم وقيمه وشعائره، مع الإستفادة من كبار المستشرقين المنصفين الذين أشادوا بروحانية الإسلام وسماحة قيمه وتسامحه، ولا بدَّ من مراجعة بعض الأحكام الفقهية والتأويلات الدينية التي تنظر نظرةً مناوئةً لأتباع الديانات الأخرى، ومنها أحكام أهل الذمَّة التي تجاوزها التأريخ، ولم يعد لها معنىً في دولة المواطنة المدنية الحديثة.

أما الملفُ الحضاريُّ فيتعلَّق بعلاقة حوار الديانات بحوار الحضارات الذي هو من الشعارات الأساسية المطروحة اليوم، فمع أنَّ الحضارة الغربية ليست كما هو معروفٌ حضارةً يهوديةً ـ مسيحيةً، إلا أنه لا يمكن إنكار أهمية هذا العامل الدينيّ في تشكُّلها التأريخيّ، فهي الحضارة التي ورثت الإمبراطوريات المسيحية الوسيطة، واستوعبت التراث الدينيَّ اليهوديَّ والمسيحيَّ في مفاهيمها وقيمها الحضارية والسلوكية، ولا بدَّ في هذا السياق من التنبيه إلى الأصول الشرقية للديانات السماوية التي نزلت في نفس الأرضية الحضارية، والتي أنزل فيها الإسلام، فلا عبرة إذن بالتمييز بين قيمٍ حضاريةٍ شرقيةٍ وغربيةٍ متناوئةٍ، بل يتعيَّن البحث عن جذورهما المشتركة، وأنماط التأثُّر والتأثير الواسعة بينهما ضمن التراث الإنسانيِّ الشامل، فرسالة النبيِّ إبراهيم عليه السلام، ظهرت في بلاد الرافدين، وانتقلت عبر ذريته بين مصر والجزيرة العربية وفلسطين، وكانت لغة السيد المسيح هي الآرامية القريبة من العربية، وكما استوعبت الحضارة العربية الإسلامية

التراث اليونانيّ الرومانيّ ونقلته إلى الغرب الحديث بعد تطويره فكانت صلة الوصل الضرورية بين هذا التراث والنهضة الأوربية، فإنَّ الحضارة الإسلامية لا تجد اليوم غضاضةً في هضم قيم ومعارف الحضارة الغربية الحديثة التي هي في الحقيقية أوّل حضارةٍ كونيةٍ بالمعنى الصحيح للعبارة، لأنها حصيلة امتزاج مختلف الثقافات والديانات.

أما الملفُّ الإستراتيجيّ، فيتعلّق بالتصوُّر الشائع في بعض الأوساط بكون الإسلام هو العدوُّ الإستراتيجيُّ الجديد الذي خلف الخطر الشيوعيّ، بالإستناد لما نلمسه اليوم من تنامي أنشطة الإرهاب الذي لا دين له ولا حضارة، بل هو ظاهرةٌ عرفتها وتعرفها حالياً كلُّ السياقات والمجالات الحضارية، استهدف العالم الإسلاميَّ أكثر من غيره، ولا بدَّ من تحديدٍ دقيقٍ لمفهومه وطرق التعامل الفعال معه، للتمييز بينه وبين حقِّ المقاومة المشروعة ضدَّ الإحتلال ضمن ضوابط القانون الدوليّ، وبقدر ما تعظم الحاجة إلى الحوار الجدِّي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب، ولبلوغ مستوىً لائقٍ من التعايش الثقافيِّ والحضاريِّ تقوم الضرورة القصوى لتهيِّئ الأجواء الملائمة لإجراء هذا الحوار، ولإيجاد الشروط الكفيلة بتوجيهه الوجهة الصحيحة.

إنَّ نقطة الإنطلاق الأولى لأيَّة استجابةٍ فعالةٍ تبدأ من خلال فهم الذات وفهم الآخر، ففي البدء يجب أن نتعرَّف إلى واقعنا كما هو بالفعل من دون رهبةٍ أو خجل، ومن دون تهوينٍ أو تهويلٍ، ثمَّ التعرُّف إلى الآخر وفهمه، وهو هنا الغرب وحضارته.

إنَّ الإنعزال والتقوقع على الذات في عالم اليوم الذي تحوَّل إلى قريةٍ صغيرةٍ بحكم التطوُّر التقنيِّ الهائل في تكنولوجيا الإتصال أمرٌ مستحيل، كما انَّ الدعوة إلى حضارةٍ عالميةٍ واحدةٍ هو بحدِّ ذاته عملية تكريسٍ لانتصار الحضارة الغربية الكاسحة، وهو طريق التبعية الحضارية الذي يفقدنا خصوصيتنا الحضارية، ويحوِّلنا إلى مجرَّد هامشٍ لحضارة الغرب.

إنَّ التقاء الحضارات معلمٌ بارزٌ من معالم التأريخ الحضاريِّ للإنسانية، وهو قدرٌ لا سبيل إلى مغالبته أو تجنُّبه، وقد تمَّ دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم لتمييز ما هو مشتركٌ إنسانيٌّ عامٌّ وبين ما هو خصوصيةٌ حضارية.

إنَّ الخيار البديل لصِدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية مع بعضها البعض بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير والعطاء والفائدة، فالتفاعل عمليةٌ صراعيةٌ ولكنها متجهةٌ نحو البناء والإستجابة الحضارية لتحديات الوضع الراهن، عكس نظرية ﴿صِدام الحضارات﴾ التي هي مقولةٌ صراعيةٌ تدفع الغرب بإمكاناته العلمية والمادية لممارسة الهيمنة ونفي الآخر والسيطرة على مقدَّراته وثرواته تحت دعوى وتبرير أنَّ نزاعات العالم المقبلة ستحكِّم فيها العامل الحاضريّ. والإسلام كدينٍ وحضارةٍ عندما يدعو إلى التفاعل بين الحضارات ينكر ﴿المركزية الحضارية﴾ التي تريد أن يكون العالم حضارةً واحدةً مهيمنةً ومتحكِّمةً في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى، فالإسلام يريد أن يكون العالم ﴿منتدى حضاراتٍ﴾ متعدَّد الأطراف، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعدِّدة أن تستبدل التعصُّب بالمركزية الحضارية القسرية، إنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعدِّدة أن تتفاعل وتتساند في كلِّ ما هو مشتركٌ إنسانيٌّ عامّ.

إنَّ شرط ازدهار القيم في أيَّة حضارةٍ يرتبط أساساً بمدى قدرتها على التفاعل مع معطيات الحضارات الأخرى ومكوِّناتها، وبالتالي الإعتراف بهذه الحضارات وحواراتها، وقبول تعدُّدية الثقافات، وتفهُّم مفاهيم وتقاليد الآخرين، واعتبار الحضارة الإنسانية نتاجاً لتلاقح وتفاعل هذه الحضارات لا صراعها فيما بينها أو استعلاء بعضها على البعض الآخر، والحضارة الإسلامية منذ نشوئها وتكوُّنها لم تخرج عن هذا الإطار التوّاق إلى التفاعل مع الحضارات الأخرى أخذاً وعطاءً، تأثُّراً وتأثيراً.

يعتبر المفكِّر البريطانيُّ جون هيك في نظر الكثيرين رائد البحث التعدُّديِّ

الأوّل، والسبب في ذلك أنَّ التعدُّدية بالنسبة إليه ليست موضوعاً في البحث العلميِّ أو اللاهوتيِّ فقط، بل تمازجت تجربته الفكرية مع تجربته الشخصية، فكانت رؤاه ثمرة تحوُّلٍ ذاتيّ، وحصيلة تجربةٍ مع الآخر، وخلاصة مسارٍ معرفيٍّ ولاهوتيٍّ طويل.

يقول جون هيك: إنَّ الأديان العظمى في العالم هي استجاباتٌ مختلفةٌ لذات الحقيقة المحتجبة بذاتها عن أيِّ إدراكٍ بشريّ، إلا أنها مع ذلك حاضرةٌ في وجودنا، ونتعرَّف إليها ونتفاعل معها عبر نظمٍ دينيةٍ متعدِّدة، يتضمَّن كلٌّ منها نصوصاً مقدَّسةً، وتجارب روحيةً، ونظماً ومعتقداتٍ وذاكرةً دينيةً جمعيةً، وتعابير ثقافيةً، وقوانين وعاداتٍ وأشكالاً فنيةً، تمثّل جميعاً كياناتٍ دينيةً تأريخيةً ذات طبيعةٍ معقَّدةٍ وشاملةٍ، وهي تعبِّر عن استجاباتٍ بشريةٍ متنوِّعةٍ للحقيقة الإلهية القصوى، يتوسَّع في مناقشة هذه المفاهيم من منطلق أنَّ التعدُّدية الدينية ملازمةٌ للتعدُّدية المجتمعية، كذلك فإنَّ الإستجابة للدين، والإنجذاب لحقائقه، والإذعان لأدلَّته، كلٌّ هذا متعدِّدٌ أيضاً، لأنه يحصل عبر نموٍّ نفسيٍّ وفي مراحل تشكِّل الذات داخل مجتمعها ومحيطها.

من هنا، يُعتقد بأنَّ الإلتزام بالقيم والإنجذاب إلى حقائق التعالي والرغبة في توليد تجربةٍ روحيةٍ داخليةٍ لا تنبع فقط من دوافع فطريةٍ، بل تأتي أيضاً في سياق تجربة الإستجابة للآخر الكبير وهو المجتمع ﴿١﴾.

بينما يسعى الدكتور عبد الكريم سروش في القبض والبسط إلى تقديم مشروع نظريةٍ تفسيريةٍ ﴿هرمنيوطيقية﴾ إلى معرفةٍ ﴿إبستمولوجية﴾ تستلهم المنهج الكانطيَّ في التمييز معرفياً بين الشيء لذاته والشيء لذاتنا، فتميز بين الدين والفكر الدينيّ، أو المعرفة الدينية التي هي قراءةٌ للدين، لتتساءل حول طبيعة

﴿١﴾ ينظر د ـ وجيه قانصو، التعددية الدينية في فلسفة جون هيك ﴿المرتكزات المعرفة اللاهوتية﴾، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٧م، ص٨٠.

العلاقة بين المعرفة والمعارف الأخرى، ويؤكّد سروش على أنه يؤمن بنسبية المعرفة لا نسبية الحقيقة، فالمعرفة الدينية تتسم بالتحوُّل والنسبية، لأنها مرتبطةٌ بألوان المعرفة الإنسانية الأخرى ومتأثرةٌ بها ﴿١﴾.

إنَّ سروش ينطلق من مبدأ بشرية المعرفة الدينية، فهي بناءٌ إنسانيٌّ يتطوَّر بالضرورة وباستمرارٍ بحسب الفهم المتغيِّر للعالم، فبينما لا يتغيَّر الدين في حدِّ ذاته يتغيَّر الفهم الإنسانيُّ له والمعرفة المرتبطة به، فالمعرفة الدينية ليست إلهيةً من منطلق الموضوع الدينيِّ الذي تعالجه﴿٢﴾، لأجل ذلك يسعى سروش إلى كشف أوليات الفهم الدينيِّ وكيفيته وتوضيح أوصاف المعرفة الدينية بالنسبة إلى سائر المعارف البشرية وتحديد العلاقات القائمة بين المعرفة الدينية والمعارف البشرية، وأخيراً توضيح سرِّ تحوُّل المعرفة الدينية وثباتها تأريخياً ﴿٣﴾.

أقول إنه مهما تكن المؤاخذات والنواقص التي يمكن تسجيلها على أطروحة سروش، فإنَّ هذه خاصيةٌ لصيقةٌ بالإنتاج البشريِّ عامةً، وخصوصاً إن كان المشروع في بداياته، إلا أنها تبقى ذات أهميةٍ وتستحقُّ الدراسة والبحث والتطوير بالنظر إلى جدتها وعمقها المنهجيِّ وتماسك بناءها الفكريِّ والمعرفيّ، على أنَّ النقد ونقد النقد هو السبيل الأوحد إلى تطوير وانبعاث الفكر الجادِّ الذي يبتغي النهوض والإصلاح.

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً وخاتم الأديان، فإنه في روح دعوته وجوهر رسالته لا يرمي إلى تسنُّم المركزية الدينية التي تجرُّ العالم على التمسُّك بدينٍ

﴿١﴾ سرمد الطائي، مراجعات في الفكر الإسلامي المعاصر/ دار الهادي، بيروت الطبعة الأولى، ص١٣٨.

﴿٢﴾ أحمد البنكي، عبد الكريم سروش في قبضه وبسطه، مجلة آوان العدد الأول نقلاً عن موقع المجلة الإلكتروني.

﴿٣﴾ ينظر عبد الكريم سروش، القبض والبسط في الشريعة، ترجمة: دلال عباس، دار الجديد، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص٢١.

واحد، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنةً من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ ﴿المائدة: ٨٤﴾ إنَّ دعوة الإسلام إلى التفاعل مع باقي الديانات والحضارات تنبع من رؤيته إلى التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالاتهم السماوية، فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعاً: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ بيد أنه لا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنسانيُّ الذي جعله الإسلام أساساً راسخاً لعلاقة المسلم بغير المسلم على أنه انفلاتٌ أو استعدادٌ للذوبان في أيِّ كيانٍ من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين، فهذا التسامح لا يلغي الفارق والإختلاف، ولكنه يؤسِّس للعلاقات الإنسانية التي لا يريد الإسلام لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاريَّ بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها.

يرى محمد لغنهاوزن بأنَّ اختلاف الظروف الشخصية لكلِّ نبيٍّ أو تقاطعها مع ظروف الآخر قد أدّى إلى اختلافٍ في الرؤى أو التعارض في الآراء، ما أدّى بدوره إلى نشوء شرائع مختلفةٍ وأتباعٍ متفاوتين أو متقاطعين ربما.

إنَّ مستويات الإختلاف تلك ناشئةٌ عن حكمةٍ إلهيةٍ تلاحظ طبيعة المراحل التأريخية والحقب التي مرَّت على المجتمع الإنسانيِّ، فهو تعالى يعلم ما هو المناسب من التعاليم للفترة الزمنية المعينة التي أرسل فيها النبيَّ الفلانيّ، ثمَّ تأتي تعاليم تتناسب بشكلٍ أكثر مع النبيِّ التالي. [1]

لقد حمل العرب قيم الإسلام العليا ومثله السامية، وأخذوا في نشرها

﴿١﴾ أنظر محمد لغنهاوزن، التعددية الدينية بين الإسلام والليبرالية، حوار في البنى والمنطلقات، ترجمة: سرمد الطائي، نقلاً عن موقع مؤسسة الضياء الألكتروني.

وتعميمها في كلّ أرجاء الدنيا، وبدأت عملية التفاعل بينها وبين الحضارات الفارسية والهندية والمصرية والحضارة الأوربية الغربية فيما بعد، ومع مرور الزمن وانصرام القرون نتجت حضارةٌ إسلاميةٌ جديدةٌ ساهم في إنضاجها مكوِّنات حضارات الشعوب والأمم التي دخلت الإسلام، فاغتنت الحضارة الإسلامية بكلّ ذلك عن طريق التلاقح والتفاعل، وكانت هي بدورها فيما بعد عندما استيقظت أوربا من سباتها وأخذت تستعدُّ للنهوض مكوِّناً حضارياً ذا بالٍ أمدَّ الحضارة الأوربية الغربية بما تزخر به علومٌ وقيمٌ وعطاءٌ حضاريٌّ متنوِّع ﴿١﴾.

لا تعني التعددية الإعتراف بالآخر أو التسامح مع وجوده فحسب، ولا تقتصر على القبول به أو صرف النظر عنه، إنها تتطلَّب أكثر من ذلك الإعتراف بمشروعية الفكرة والمنطلقات التي يقوم عليها، حتى لو أننا لا نؤمن بها ونعتقد، وهذا حقُّنا، إنَّ مشروعية فكرنا هي الأقوى. ولا ينبغي أن نجد صعوبةً كبيرةً في التأسيس لمشروعية التعددية في ثقافتنا العربية والإسلامية، فهي لا تعني شيئا آخر سوى الإقرار في أنَّ احتمال الخطأ كامنٌ في أيِّ نظرٍ، وذلك على منوال القاعدة التي سنَّها كبار أئمة المسلمين أنفسهم: رأيٌ صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي الآخر بخطأ رأي الآخر المخالف لي لا يلغي احتمال وجود الصواب فيه. ﴿٢﴾

إنَّ التعددية بهذه القراءة يقبلها الدين والعقل، وحينما يدعو القرآن أهل الكتاب إلى حياةٍ مسالمةٍ تحت خيمة التوحيد، فلكونه أصلاً مشتركاً بين جميع الشرائع السماوية، حيث يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿آل عمران: ٦٤﴾ وقد اعترف الإسلام بأهل الكتاب ودعا إلى احترام حقوقهم بما لا مزيد عليه.

﴿١﴾ عماد الدين خليل، مصدر سابق،ص٣٥٨.

﴿٢﴾ مالك بن نبي: شوط الحضارة، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ٢٠٠٤، ص ٤٠.

نودُّ أن نورد شاهداً هنا مثلاً من التأريخ الإسلاميّ: عندما كان الإمام علي عليه السلام يتجوَّل في شوارع الكوفة رأى رجلاً أعمى يستعطي الناس فسأل: ما هذا؟ فقيل: رجلٌ نصرانيٌّ، فأجاب الإمام: ﴿عجباً، استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! اصرفوا له من بيت المال لتصونوا وجهه﴾. وحينما تجب معاملتهم بالحسنى والعدالة والقسط فذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى يحبُّ المقسطين، وهذا السلوك لا ينطوي على شيءٍ من النفاق، إنما هو من صميم الدين الإسلاميّ، وليس أجمل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخاطب واليه على مصر إذ يقول: ﴿وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق﴾.

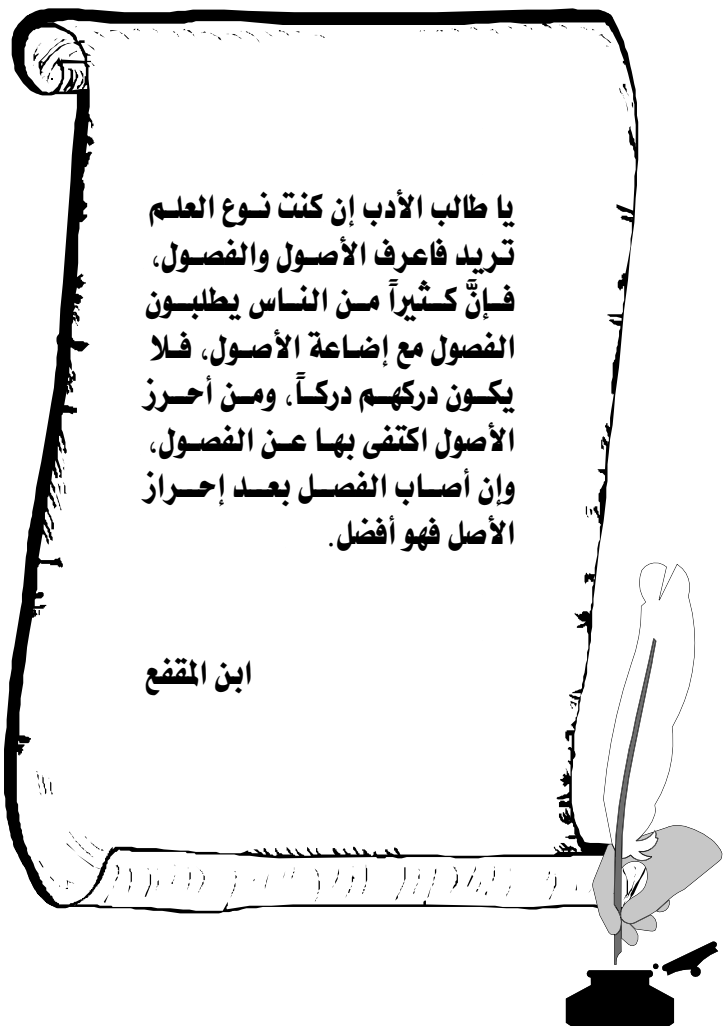
يا طالب الأدب إن كنت نوع العلم
تريد فاعرف الأصول والفصول،
فإنَّ كثيراً من الناس يطلبون
الفصول مع إضاعة الأصول، فلا
يكون دركهم دركاً، ومن أحرز
الأصول اكتفى بها عن الفصول،
وإن أصاب الفصل بعد إحراز
الأصل فهو أفضل.
ابن المقفع